الأمير الأمازيغي أبو حمو موسى الثاني

رحلة السلطان / رحلة الشعر

د.أحمد موساوي

تلمسان ...مدينة المغرب الأوسط، ودار ملك زناته، ومتوسطة قبائل البربر، ومقصد تجار الأفاق... وهي من أعز معاقل[1] المغرب، وأحصن أمصاره، اتخذها بنو عبد الواد عاصمة لهم ودار ملك.

أبو حمو موسى الثاني حفيد يغمراسن... أول رجل يعلن سيطرة قبيلة بني عبد الواد الأمازيغية على الحكم، فهو مؤسس هذه الإمارة بالمغرب الأوسط، وعاصمتها تلمسان[2]، وعرف عن هذا الأميرأنه من أشد بني عبد الواد بأسا، وأعظمهم بين النفوس مهابة وإجلالا، وأعرفهم بمصالح قومه، اشتهر بحصافة الرأي وسداد التدبير، وهو القائل عندما بلغه أن هناك من يتحدث عن علاقته بالأسرة الشريفة، " إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله وأما الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا".[3] و من سلالته كان صاحبنا أبو حمو السلطان الشاعر.

إمارة تلمسان الأمازيغية، اختط لها أمراؤها طريقا حولها إلى حاضرة تنافس الحواضر الإسلامية آنذاك، كما فتحوا أبوابها السبعة على مصراعيها للوافدين من مشارق الأرض ومغاربها، كل حسب مقصده وحاجته، التاجر، و الشاعر، والحرفي والفنان، والمتصوف والفقيه، فتحولت بالفعل فضاء تشد له الرحال من كل حدب وصوب .

وعلى الرغم من تواجد الإمارة الزيانية بين حجري رحى، أي بين الدولة الحفصية في تونس والدولة المرينية في المغرب، ومعاناتها الويلات من هؤلاء الجيران، الذين حولوا في الكثير من الأزمنة حدودها إلى مادة مطاطية تضيق وتتسع، نتيجة استمرار النزاعات منذ بداية القرن السابع الهجري إلى القرن العاشر، زمن سقوطها، رغم كل تلك الظروف القاسية كانت فاعلة على المستوى العلمي والثقافي والعمراني، على مساحة امتدت حدودها من وجدة المغربية إلى قسنطينة وبجاية شرقا وإلى سجلماسه في الجنوب الغربي ، وما بقي من معالم وموروث ثقافي دليل على عظمة تلك الإمارة وقوتها زمن أمازيغ بني عبد الواد.

ويعد أبو حمو موسى الثاني من أبرز أمراء هذه الدولة الزيانية، وأكثرهم تميزا في تاريخ تلمسان، فقد ولد في غرناطة عام 723 هـ، ونال في قصر والده من العلم والفن والسياسة الشيء الكثير.

ولما استولى المرينيون على تلمسان[4]، عاش الأمير الشاب بمدينة فاس التي عدت آنذاك من أهم مراكز الثقافة الإسلامية، فتوسع في طلب العلم واشتغل بالأدب والعلوم الدينية، وما دعم تحصيله أكثر بعد العائلة عن السياسة مؤقتا وانعزالها في مدينة ندرومة.

وبعد فترة من الزمن رحل أبو حمو موسى الثاني إلى تونس بعيدا عن الأنظار، حيث كان يجتمع بالوافدين من قومه، متطلعا إلى أخبار مدينة تلمسان وأهلها، وأوضاعهم في ظل الحكم المريني، وخاصة أن حلم استعادة العرش بدأ يراوده.

ولما سيطر المرينيون على تونس غادرها أبو حمو عام 758هـ، مغتنما فرصة انفصال قبيلة الدواودة عن دعم بني مرين ، وسعى إلى استمالتهم وحثهم على محاربة السلطان المريني، والتحرك معه من أجل استرجاع تلمسان.

إلى أن واتته الفرصة لذلك حينما سمع بخبر وفاة السلطان المريني أبي عنان[5]، فباشر عملية الهجوم سريعا لإبعاد المرينين واسترجاع تلمسان.

وقد وصلت دعوات أهالي تلمسان آنذاك، أبا حمو، لإنقاذهم من شر المرينين، والجلوس على عرش آبائه، " ... فتجهز لذلك مستعينا بالحفصيين مؤيدا بكل ما تدعو إليه الحرب من عتاد وأسلحة وجند، فسار إلى ذلك، أبو حمو، بين جبلي عياض وأوراس، فنزل الزاب ثم ريغ ، و ورجلان ... ثم سلك قنطرة وهران وهو في ذلك كله يشن غاراته على بني مرين وأنصارهم، وكانت له يومئذ وقائع مشهورة انتصر فيها على خصومه فبايعه العرب وأذعنوا له، واستولى حينئذ على تلمسان وأطرافها..." [6].

وقد كان الشعر مصاحبا لأبي حمو في رحلته المصيرية، بحثا عن الملك، وإن الحكمة والفطنة التي ميزت سياسته للأمور في الحرب والسلم، ميزت أيضا تحكمه في القصيد، وصياغته لتلك الرحلة فنا وإبداعا [7] :

وخضت الفيافي فدفدا بعد فدفد لنيل العلى والصبر إذ ذاك لازمي
وكم ليلة بتنا على الجدب والطوى نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
على متن صهال أغر محجل مديد الخطى لم يخش صعب الصلادم

فالفعل البطولي الملحمي هو اللون المميز لهذه الرحلة: [8]

بهمتنا العليا سمونا إلى العلى وكم دون إدراك العلا من ملاحم
شددنا بها أزرا وشدنا بناءها وكم مكثت دهرا بغير دعائم
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه وكم بات نهبا شمله دون ناظم
ورضنا جياد الملك بعد جماحها فذلت وقد كانت صعاب الشكائم

فهذه القصيدة تحوي اثنين وتسعين بيتا، تصور لنا رحلة الأمير الملحمية وتصاحبه في معاركه لاسترجاع الملك وتثبيت دعائمه ، و سنعود إلى هذا في حينه.

وكان تركيز أبي حمو على تدعيم إمارته، بملاحقة المرينين وطردهم من كل أنحاء المغرب الأوسط، فأخرجهم من وهران بعد هدم أسوارها عام 763 هـ[9]، ولم تنته مواجهته الأطماع التوسعة التي كانت في مد وجزر، طيلة حكمه الذي دام أكثر من ثلاثين عاما.

فقاد أبو حمو هذه البلاد بحكمة ومقدرة عالية داخليا وخارجيا، وكم كانت شهامته وكرم أخلاقه، و لين عريكته ، وغيرته، تجعله لا يتأخر في إعانة ورفع الظلم عن شعبه، وكذا التعاون مع إخوانه في الأندلس مواجهة للأعداء يدعمهم بالمال والعتاد.[10]

ولعل حب أبي حمو للعلم والعلماء، والشعر والشعراء، جعله يسهم بالكثير في النشاط العلمي والثقافي في إمارته، فحظي العلماء والأدباء والكتاب والطلبة برعاية خاصة، ونالوا من عطاياه وكرمه الشيء الكثير، ففي عهده عرفت تلمسان خمسة مدارس أساسية، وكان الجامع الأعظم واسطة العقد، ومركزا ثقافيا يضاهي مراكز الثقافة في العالم الإسلامي، وبرز فيه الكثير من الفقهاء والعلماء، ومنهم أبو عبد الله محمد الشريف الحسين، والذي تخرج على يديه، محمد المديوني، وابن زمرك، وابن السكات، وعبد الرحمن ابن خلدون، وأخوه يحي، وغيرهم كثر، وكان من أبرز علماء هذه الحاضرة ابن مرزق الخطيب، خطيب جامع الحمراء بغرناطة.

وعرفت تلمسان حركة أدبية مميزة، كان من نشاطاتها وروادها أبو عبد الله القيسي الثغري، الذي كان من كتاب دولة أبي حمو الثاني، وله من الشعر قصائد طوال، نظم أكثرها في الحفلات الدينية كإحياء ذكرى المولد النبوي، كما ظهر إلى جانبه أبو عبد الله التلاليسي، طبيب السلطان و شاعر البلاط، له تواشيح رائعة ومدائح كثيرة، ومن الشعراء أيضا ابن العطار، وابن سفيان، وابن صالح شقرون، وابن قاسم المرسي،..... و غيرهم كثر .

وإن اهتمام أبي حمو بأمور البلاد و العباد، وفاعليته في تحريك المجتمع على كل المستويات وفي كل الميادين، لم يمنعه من الإبداع و الكتابة، وتلخيص تجربته في الحياة والسياسة وتقديم أرائه السديدة وحكمته للاحقين وخاصة أبناءه، "... وقد وضعنا لك، يابني، هذا الكتاب...وجمعنا لك ما يصلح لك بين أمور الدنيا والآخرة...وبعد حفظك لكتابنا هذا، وإتباعك للأمور الشرعية والسياسية الدنيوية، فتكون عمدتك كلها، التوكل في جميع أمورك على الله تعالى والتفويض له"[11].

وقد روى كتاب " واسطة الملوك في سياسة الملوك "، قصة أبي حمو الثاني وصراعه من أجل استعادة الملك، ويتضمن الكثير من القيم الخلقية التي يتوجب على رجال الدولة التحلي بها، وكذا الصفات الذميمة التي ينصح بالابتعاد عنها، كما يركز على الحكم الرشيد لضمان الدنيا والفوز بالآخرة، كما وقف في كتابه عند أركان الملك الأساسية وهي العقل والسياسة والعدل وجمع المال والجيوش، وفصل الكاتب الأمير فيها كثيرا وقدم نماذج عدة من التاريخ، وعرج على الخصال المحمودة التي يستقيم بها الملك من شجاعة وكرم و حلم وعفو، "... اعلم يا بني، أن الشجاعة وصف محمود، وبها يتفاخر الوجود، واعلم أن ثمرة الشجاعة لم يكن مثل صاحبها في الدنيا وخصوصا في الملوك، فإنها لمآثرها كالوسائط في السلوك، وأصل الشجاعة الصبر في المواقف، وربط الجأش عند المخاوف، ورأسها الحذر والتوقي، وسياستها الممارسة عند التلقي... "[12] ويسترسل الأمير في النصح و تبيان ما يصلح للملوك " ... واعلم يا بني، إذا كان الملك

شجاعا كان منصورا مطاعا، ترهبه الأعداء وتطمئن إليه الأولياء، يعتد به جيشه في مواقع الحروب، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب... فرب الشجاعة بالرعب منصور وفي زمانه معظم مذكور... "[13]

و إن المواجهات الكثيرة التي شارك فيها الأمير أبو حمو ضد المرينيين الحفصيين، ونجاحاته المتعددة وبعض انكساراته أكسبته الكثير من الخبرة قدمها لابنه وللساسة والملوك في كتابه هذا، كاشفا صور الكر والفر، واجتماع الحكمة والفطنة مع الشجاعة في الحرب "... يا بني، وإذا قربت من عدوك فلا تعجل عليه بالحملة، ولتأخذ في أمرك بالتأني والمهلة، فإنه لابد لكل دفعة من رجعة، ولكل كبوة من رفعة، وليكن انتهاضك إلى عدوك زحفا، فإنك ترهبه خوفا ورجفا، فإن أبطالك تقاتل بين يديك، معتمدة في قتالها عليك.... "[14]

ولا يكتفي الأمير الكاتب بما تقدم بل يلتفت إلى تقوية الجيوش وحسن اختيار الوزراء والمستشارين، إلى الفراسة و الدهاء في اكتشاف ما يميز الصالح من الطالح فعلا وقولا، ومنه "... يابني، ينبغي لك أن تتفرس في وزيرك الذي اتخذته لرأيك وتدبيرك، وشاركته في قليلك وكثيرك، وتنظر إلى أقواله وأفعاله، وكافة أحواله... فإن كان لك خديم ناصح في خدمتك، موف لجميع حقوقك وحرمتك، ويريد وزيرك أن يوقع به عندك ، ويغير خاطرك عليه ويفسد نيتك وقصدك، فخذ معه في ذم ذلك الخديم، وقل ما ليس فيه من حادث وقديم، فإن رأيته وافقك على ذلك، وسلك في ذمه كل المسالك، ثم أتى بما هو أشنع علمت أن وزيرك عدو لذلك الخديم، طالب نكبته بكل فعل ذميم و أن كلامه باطل، وحاله معه حائل... "[15]

ويتواصل في الكتاب النصح مع التركيز على متطلبات الملك والإكثار من الشواهد والأمثلة الحية التي لاقاها في رحلته الشاقة نحو الملك، هو و رجالاته العسكريون والسياسيون، وفي صدهم لأعداء الدولة الزيانية من بني حفص و بني مرين، " ... وإن أردت أن تعرف من جلسائك من هو محب فيك، عامل في خدمتك وتصافيك، أومن هو بخلاف ذلك، سالك في خدعك شر المسالك، فتفرس في طباعهم، وانظر إلى تملقهم واصطناعهم، واختبرهم إذا ورد عليك سرور على غفلة، وأتاك بشير وارد بعجلة، وكيفية اختبارهم أن تنظر إلى وجوههم في الحين، فتتبين منهم أحوال المحبين وغير المحبين ..."[16] .

وهكذا يرحل الأمير في كتابه عارضا أفكاره ورؤاه عبر محطات متعددة، تتسم بالكثير من الصدق والواقعية، مع الارتكاز على التجارب الشخصية، فتحدث عن السياسة والمجتمع والإدارة، والحرب، وساق الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية، والحكم والأمثال والأشعار لدعم توجهه، كما وقف عند النفس البشرية وعمل على سبر أغوارها لفهم الطباع و الأمزجة، وقدم أساليب عدة للتعرف على ما تخفيه الأنفس من النوايا والأغراض الخفية، ثم ختم كتابه بالدعوة إلى نصرة الإسلام في الأندلس و الاحتفاء بالمولد النبوي الشريف .

إن حكمة السلطان أبي حمو موسى الثاني، لم تصلنا نثرا عبر كتابة الواسطة فقط، بل واكبتها رحلة أخرى مع الشعر والإبداع، وحقق المقولة الشائعة عن الحكمة لما طلب منها أن تختار بيتا تسكنه فقالت أنها لو خيرت لاختارت بيتا من الشعر تطل من خلاله على الناس، وهكذا أطلت حكم أبي حمو وتجاربه وعبقريته على أبنائه والناس من خلال أبيات من الشعر وأبرزها جاء في هذا المقام ثلاث قصائد وردت في كتابه،

أولاها قصيدة في الفخر وشكر الخالق على نعمه، والثانية في مدح الرسول الكريم، والحديث عن التقوى والتقرب من الله، وفي الثالثة يتحدث عن القوة والحنكة العسكرية والدهاء السياسي.

إن هذا الأمير الشاعر ، كما يرى التنسي ، ساس أهل إمارته " ... بالسيرة الحسنة وغمر الرعية قسطاس عدله الأسنى ، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه ، وحق يمضيه ، وعاق يرضيه ، وسيف لحماية الدين ينضبه .... وله من النثر الرائق والشعر الفائق ، ما ارتفعت صنعته من بلاغة الملوك ، ومن العلم العقلي والنقلي ما جلا نوره عن الدنيا مدلهمات الحلوك ...."[17]

فمن هذا نستشف أن الرحلة متنوعة الاهتمامات ، وأن الأمير لم تشغله حدة الصراعات وتسيير أمور الدولة عن التوجهات العلمية والإبداعية ، بل أسهم في شتى الميادين فكان قلمه مجاورا ملازما لسيفه ، وحاضرا حضورا متميزا وفاعلا.

كان لرحلة أبي حمو مع السلطة ومتطلباتها ، وواقعها الحلو والمر ، وأزماتها الداخلية والخارجية ، تواجد على المستوى الشعري ، ففي الشعر السياسي الذي يأتي في الدرجة الثانية بعد نبوياته من حيث الكم ، أرخ الأمير لرحلته وهو يسعى جاهدا لاسترجاع ملك أجداده ولتقوية دولته بعد ذلك ، وعد هذا الفن سجلا للمواقف الحاسمة التي عاشها ، في طريقه نحو العرش:[18]

حالي يطول ومحنتي لا تنقضي كم لي بميدان الوغى من محفل

لا بد من سوق النجوع مغربا حتى تكل متونها بالأحمل

وترى الفوارس دائرات بالعدى تسقي لواردها نقيع الحنظل

يا نجل عامر سرنا واطو السرى ليلا لعل الدهر يدني منزل

ويتواصل حديثه عن معاركه في طريقه إلى تلمسان عاصمة دولته ويكشف عن هول المواجهة بين أنصاره وعلى رأسهم قبيلة بني عامر وبين قبيلة سويد أنصار المرينين ، فيثني على استبسال جيشه وصبره وجلده في ساحة الحرب.

وضمر عناجيج على صهواتها كرام سماح بالنفوس الكرائم[19]

نطارد فيها الخيل بالخيل مثلها فكان على الأعداء كر الهزائم

حملنا عليهم حملة مضرية فولوا شرادا مثل جفل النعائم

فولت سويد ثم خلت مجيرها وشيخ حماها في الثرى أي جاثم

وكم خلفوا من بين بكر وبكرة وكم غادة ملتفة في الهدائم

فحاز الφثنا فيها سير بني عامر كما حاȲ من قبل ذياب بن غانم

فالأمير يصور نصره على الأعداء ويفخر بأن الله أعانه في مقصده ومبتغاه ولا يمكن لمن ڴن مؤيدا من ئلله أن يفشل ، فالحرب إذن سياسية ودينية ، ما دام ئلأمير يۓارب من أشاعوا الظلم ويسعى إلى إعادة الأمن والعدل فتلك هي مشيئة الله.

نظمنا شآيت الملك بعد افترا ـه وكم با نهبا شمله دون ناظم[20]

شددنإ لك أزرا وشدن pا بناءه بأوثق أركان وأقوى دعائم

فصارت ملوك الأرض تأتي مطيعة إلى بابنا تبغي التماس المكإرم

وجاءت Uژا بأمر الله في نصر ديله وفي كف ما قد أحدثوا من مظالم

إن اعتزاز وفخر الأمير Ęنصره على المرينين ، وطردهم من تلمسان دار ملكه جعله ينسب هذا النصذ يعيثه إلى الله الذي لا يمكنه أن يخيب عبدا مؤمنا عادلا كأبي حمو.

تخوض بحرا ولا تخشى عواقبه وليس تسلك لج البحر بالنجب[21]

عاندت ويحك م ц أعساه خالقه ومن سما ذكره في العلم والكتب

ومن يعارض بأمر الله معترضا يخسر و يصبح على بحر من النصب

من رام إدراكنا رام المحال ولا ينجو من السيف من قد لج في الهرب

إلى أن يصل إلى قوله:

وقد نهضت بعون الله متكلا على الإله ومن يرجوه لم يخب[22]

بعكس لجب ضاق الفضاء به كالبحر أعظx به من عسكر لجب

عرمرم زاخر فاضت مواكبه كأنه سحب أربت عل سحب

من كل ليث شجاع فارس Ɔامي الذمار من الأعاجم والعرب

والدارس لشعر أبي حمو يجد أن حياته السياسية بغلغلت في شعره حيث كانب مادتها وفيرة حية ، غذت فنه وتفاعلآ معه وأكسبته حيوية وقوة ، مما أغرى القارئ بتتبع رحلته الأياسية والشعرية.

والمتأمل لنونيته الرائقة تتكشف له تلك اللهفة إلى العودة إلى تلمسان عاصمة ملكه ، وفي الوقت نفɔه ذلك اعشق للمدينة التي أظهرها كغادة حسناء ، أسرها الأعداء وأبعد علها عنوة وقسرا ولا بد من فك قيحها وإسارها:

كتمت حبي فصفشى الدمع كتماني وزاد شوقي على قيس وغيلان[23]

إني فتنت بذات الخال يا خولي وعذبت بجفاها العاشق العاني

قالت وحق هواك اليوم ما نظرت عيناك عيني إلا ذبت من شاني

الحب من شيمتي والوجد معرفتي والصبر نافلتي يا آل زيان

إني وحق حياة الحب ما اكتحلت والله بعدكم بالنوم أجفاني

ولا شغفت بحسن غير حسنكم ولا أخذت عليكم في الهوى ثان

ففي صورة رامزة ، تظهر ذات الدلال ، تلمسان دار الإمارة ، ولا بديل لأبي حمو عنها ، بل من أجلها يخوض غمار الحروب ، وتعترضه المحن في طريق استرجاعها.

وكم سقيت كؤوس الموت صافية وقد حميت بحد السيف أوطاني[24]

وكم قهرت عدوا ظالما غشما يوم اللقاء بإظعان و أطعان

وكم عمرت ديارا قل عامرها وقد جعلت ديار الأنس عمران
وقد أقمت رسوما قل ناصرها يوم الهياج وكل الناس عاداني
حتى ظفرت بشيء كنت أطلبه فالحمد لله في سر والإعلان

لقد امتزج الحب بالدم في طريق أبي حمو نحو دار الملك ، التي دخلها فاتحا منتصرا ، وكانت القصيدة حاضرة متابعة الحدث ، كاشفة جوانب عدة من الرحلة نحو البطولة ، وعلى رأسها الجانب الإنساني ، حيث تهتز العواطف وتلهب المشاعر كاشفة رقة الأمير.

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم لما شحطتها من هبوب الرواكم[25]
وقفت بها مستفهما لخطابها وأي خطاب للصلاد الصلادم
وصفقت ما بين الظلول خوامسي وفاضت سواقي الدمع مثل الأراقم

إن استرجاع المجد المفقود والوطن المنتهك يثير الكوامن ويدمي العيون ولكن ذلك كله عند الأمير رجل السياسة يشترط الجلد والصبر على المكاره وسرعة ضبط المشاعر والتحول إلى الصرامة:

قطعت الفيافي بالقلاص وإنما تجاب الفلا بالخف أو بالمناسم[26]
وقد خلتها بين الرياح زوابعا تسابق في البيد ظليم النعائم
ومعها أسود الحرب تطوي بها الفلا يرون المنايا بعض تلك المغانم
وخضت الفيافي فدفدا بعد فدفد لنيل العلى والصبر إذ ذاك لازمي

فضبط النفس من سمات البطل الملحمي الخاضع لسلطان العقل ، الراغب في الاستمرار في سلوك السبيل السليم نحو المجد ونحو رفع الظلم عن الأهل والوطن ، فلم تستطع النفس إغراء الأمير والانحراف به عن الجادة ، بل كان شديد الارتباط بربه في هزائمه وفي انتصاراته ، كثير التوكل عليه مطمئنا إلى قدره ومصيره.

يا رب كم آنستني في غربتي يا رب كم فرجت كرب المكمد[27]
يا رب فاجبر ما ترى من حالتي يا رب واجبر قلب كل موحد
يا نفس لا تيئسي وإن طال المدى فا لله يجمع شمل كل مبعد
ستعود أيام السرور وطيبها و تعود عن قرب ليالي الأسعد

ولعل أبرز محطة استوقفت الأمير الشاعر مرات عديدة وجعلته لا يفوت الفرصة ويدلي بدلوه فيها هي ذكرى مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) ، والتي كشفت لنا عن تمرس بهذا الفن الجميل الذي أصبح تقليدا مميزا في المغرب الإسلامي والتفت حوله الخاصة والعامة وأشرف عليه الأمير وأوجد له إطارا تنظيميا يقدمه للناس من خلاله كل ما هلت الذكرى على الأمة الإسلامية.

إن هذا التقليد الذي عرفته بلاد المغرب والأندلس ينسب إلى أبي العباس العزفي أمير سبته (2rϬĘ) صإد تأب الدر الcنظمPفъ Λولث اللي المعdbم وئلّي 8كملÏ وأنهأه ابنه" .,* أبـ

الـ ارë، أدهم الـC ظإفيتــه ووفــقÈ¢ و رح صـــدره،∏وخــتم الdصـتــأب وإلســنة!ديــوان ΛلG صـالح و هّه وذر في ع ж ما خص Àلـه!تЧو ٧ نШ٪ـ، وفـّله على كل Λ تأخ-бΛن ـظ؟ه أو تـ م، وم أمتن Шه ظلوه وظل صـمبه في أن ؤعل أفـل الأنبقاء`و جعلч أف٤ж الأEم ، من ين ولد ـدم Dقخذوا xّلدч إلكريم∏Eوّما، تّكون ه ما∏فإنو Ч ي يموله!Λن∏أظياد لنàذى وعوأئـــدهم

ئلتي يج لمزّاقيم8 صـ٨ تس ولمباZClما"أن تكحم."[08III] . ومـــن Ьلال فـــا

وeل"cن الـــــــم5ادذ الOاقفخـــــــب . ال#ЯبـــــــيIII

عـــــــن إلاحتـــــــفXل بـــــــذكى المولـــــــدÈ#@ÆIIIوي فـــــــي ЧUxظـــــــرب

آبين ـ ه0ا اfتفاfا كان على(صرقدين، aسمJ و شعبي)ûq ،$ الـشpبـي عـرف فـъ
الـت'ÕÎ(وإمـدار f الـرآيـة وئـزواأ¿ا إQ¢ يـؤتم الـطUبـة و RUحفـظء fتfDاوة الـرآن الكـريـ،
Jالـ ذكـار J وقـراءء قشـب Aول âظرسـو ΠfسـلxÞ)، تـم اسـماp لـمـدâ حإلـن(ويـة
٨إلÕواشـقح âظـتينةÖ وأمـا اDاحتفـال اـرسEق فيحضـر¢ ألخـأeة و"ال،فظـة وألشـعراء، فـQ ح ةдбQ
الـسUطـان و لTóΠكـل ـ¡ارف فـЧ أÓضGÕ مـن Dديـح ـ يكـذا البـا قم يـخـثـم بـXΛح
ئسلس8ق صاحب اDدجتفا..

ومـــن Ьلال فـــا و eل"ن الـــم5ادذ الÕاÕقخًـــب . ال#Яبـــي Ш

عـــــــن إلاحتـــــــفXل بـــــــذكى المولـــــــدÈ#@ÆIIIوي فـــــــي ЧUxظـــــــرب

آبين ... و شعبي)[30] ... عرف فـ... الرآنية وئزوأ... الطبة و ...حفظ... الكريم، ... ذكار ... وقراءء قشب ... علقه وسل...)، تم اسما... لمدح إلن(وية ...واشقح ... وأما ... فيحضر ... ألخأة و"ل...ظة وألشعراء، فـ... ...ان و... ... كذا البا تم يخ...م ب... ...ق صاحب ...دجتفا..

وقا فـ... لأمراء ... هذه النو... من الأحفإ... لفجتمع ئلمغربو ...ن طب...ات الان...، لر الـمل ل... الحيلوة ...ن الاتفل ب...عيا النص...ر ا...ي ...عت نذا... نتيؤة ...صرحت...اك ب... ف أندّ... و...لمغر، م... ...كل خطء... على عقي...ب امسلمين و 9...تهم وثقافتم... الأيلة، إضإفب إلى صـ... ...سيم ال...ف... ع فستو الألطة يمق... لـه أن يحق... أندا... ...رى ...ب...زها كس... أل...ماه... ...ن خلأل ارتباط بذك... الرسو... ...كري... العريق ...لآص...، وخ...ص أق أغلب أمر...ء المغرب آن...اك كانوأ ...يغ، و... ...ي... أو...صر ...ب بين ال... ...ء ...عامة الش...ب، وي...بون رضاهل، إضافة ل شاعة ال...يم ...لمبمديب فق مواجهة الق... ...مرق...ية ئلوافة.

صـ...ان ...مور أي حمو دوذ فعال بار... للـ...يء... هذه ...لاحآفا... فك... "... يق... ب... ق ليـة مولح المصطفى وية... لهئ بمئ هـ... فو... سا... ...موأرم، يقي مد...اة ي–شر ...ف والسقة..."[30]، فمذ... إس...وك الحكيم من ...ر وألذي ...حدة عقه في ذ...اسة ...و... استقط... ان...س ...ي ...ولت... ، فزطى ...لى احت...فات النصإرى ووفر ...اء دينيا أخوياً موحد... لل... ...مس'ش...يا ي العؤمة وال... ...رة اجتمئ...ها و ت اقفها ليل ذكرى ...ولد الرسو... (صلى إلله علوك ...س...م)، ...ن خ...إل ...به... أحت...او بهيج وناج– إق... تلاحمإ انس،ام ...ي النس...ج الاجتماعي للبلاد.

وقد حفز الأمير الشعراء من كل الأمصار على النظم في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ودخل معهم المنافسة وسبقهم إلى تلك المحمدة فما من "... ليلة مولد مرت في أيامه إلا ونظم فيها قصيدا في مدح المصطفى أول مايبتدئ المسمع في ذلك المحفل العظيم بإنشاده، ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العلي في تلك الليلة نظما"[31]

ومن افتتاحيات المحمدية الرائقة، قصيد مطلعه

قفا بين أرجاء القباب وبالحي وحي ديارا للحبيب بها حي

وعرج على نجد وسلع ورامه وسائل فدتك النفس في الحي عن مي

وقل ذلك المعنى المعذب بالهوى يموت ويحيى فارث للميت الحي وبث لهم وجدي وفرط

صبابتي ورو حديثي فهو أغرب مروي

يعذبني شوقي ويضعفني الهوى وقلبي على جمر من الشوق محمي

وإن حديثنا عن رحلة الشعر عند أبي حمو وخاصة في فن المديح النبوي يستدعي منا وقفة متأملة في تركيبته الفنية وبنيته التي لم تخرج عن التقليد السائد في شعر العرب، فقد بقيت المدحة النبوية لصيقة بفن المديح العربي، فكثيرا ما التزم كعب بن زهير وحسان بن ثابت بما عرفه المدح آنذاك من ذكر للأطلال و الدمن ، والبكاء والشكوى للفراق واستوقفوا الرفيق، ووصلوا كل ذلك بالشوق إلى الأحبة لما في ذلك من أثر في النفوس على حد قول نقادنا القدامى، ثم الانتقال إلى تعداد خصال الممدوح الذي يعد ركيزة و مقصد هذا الفن.

فهذا المسلك التزم به شعراء المديح النبوي، لمدة طويلة إلى أن وصلوا لمجموعة من الخصائص والتقاليد التي اعتبرت أكثر انسجاما مع مدح الرسول الكريم، فاستعاضوا عن ذكر الديار بذكر الأماكن الحجازية والتشوق إليها، وقد أشار ابن حجة الحموي لهذه القضية في خزانته حينما قال " إن الغزل الذي يصدر به المديح النبوي، يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب، ويتضاءل ويتشيب، مطربا بذكر سلع ورامة وسفح العقيق، والعذيب والغدير ولعلع، وأكناف حاجر، ويطرح ذكر الأرداف ورقة الخصر، وبياض الساق، وحمرة الخد، وخضرة العذار وما أشبه ذلك"[32].

فكلام ابن حجة في هذا الباب يتضمن توجيها صريحا لمداح الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى النهج الأسلم والأليق في بناء قصائدهم ومنظوماتهم، إذ يدعوهم إلى الحياء والحشمة وتوقير الجناب النبوي، ويجد أن ذكر المرابع المقدسة تؤدي الغرض وتنسجم مع طبيعة هذا الفن، وفي الوقت نفسه لاتبتعد عن التقليد الفني السائد في قصيدة المديح العربية، فالمدحة النبوية بهذا الشكل ستجعل الشاعر يتحرك في الإطار والفضاء الذي انتشرت داخله القيم الإسلامية الراقية، والنفحات الإيمانية النقية.

ولم يشذ أميرنا الشاعر عن هذا الواقع الجديد، والتقليد المستحدث، وأصبح الجو الإيماني في قصائده يتطلب احتشاما ونأيا عن الأوصاف الحسية، فجاءت مطالعه باسطة للخواطر النفسية في تأدب ووقار نابع من أدب ووقار الأمير.

ذرفت لتذكار العقيق دموعي وازداد شوقي للحمى و ولوعي
والحب شب أواره بضلوعي من لي بشمل بالحمى مجموع
وبجبر قلب بالنوى مصدوع
هي النسيم من أرض نجد شاقني والبرق أرقني سناه وراقني
والذنب عن وصل الأحبة عاقني وجرت دموعي كالعقيق وخانني
صبري وكان الشوق أصل خضوعي[33]

ولم تعد الرحلة في المديح النبوي الرحلة المعروفة في شعرنا العربي بل الشاعر هنا يصف الراحلين، وهم في هذا المقام، حجاج بيت الله، ويقف متأملا في معاناتهم ومشاقهم وهم يسلكون أوعر الطرق وأخطرها نحو الحجاز من أقصى المغرب، هي مشاق مستعذبة لها متعتها و لذتها ما دامت من أجل الوصول إلى الحبيب.ومنه قول الأمير[34] :

ما للمحب دواء غير وصلهم يبري له السقم والتبريح و الوصبا
وقد تقطع قلبي بعدهم قطعا لما نأوا وقصوا في سيرهم أربا
سار الأحبة نحو الرقمتين ضحى وخلفوني رهين القلب مكتئبا
ساروا على البزل والحادي يجد بهم والقلب مني إلى أرض الحجاز صبا
هذي الأحبة قد شدوا مطيهم وأسرعوا بقباب الحي نحو قبا
ولا رضيت لنفسي غيرهم بدلا ولا وجدت لقلبي دونهم طلبا
ولا سلوت ولا أسلو لبعدهم إن السلو عن المهجور قد حجبا
زموا إلى زمزم والقلب يتبعهم والصبر بعدهم عني لقد عزبا
وخلفوني بغرب مغرما بهم أشكو لهم وبهم من عبرتي عجبا
فقلت يا حاديا والركب يسمعني رفقا على الصب يا حاديهم فأبى

إن الذي غذي الإحساس العميق بالمكان في المديح النبوي عوامل عدة أبرزها حب زيارة قبر الرسول(صلى الله عليه وسلم) ، وهي من الفضائل المرغوب فيها، ومن خلالها ندرك أنه لا فرق بين حب الرسول (صلى الله عليه وسلم) واحترامه حيا أو ميتا، وبسبب ذلك كله تضاعفت حوافز الرحلة الفردية والجماعية إلى ذلك الفضاء المقدس، وتلك المنازل النبوية، وعلى المستوي الشعري أصبح توجيه رسائل الشكوى والاستغاثة إلى الحجاز والتعبير عن الحنين إلى تلك المرابع، كثير الشيوع، مع ذكر الموانع التي تحول دون الوصول إليها، وحين يصعب ذلك يصوغ الشاعر مشاعر الوجد و العشق، مشيرا إلى امتناع اللقاء الجسدي واستمرار التواصل عبر الروح والخيال مادامت أسباب المحبة المحمدية قائمة في النفس وكامنة فيها.

إن الروح لتتشوق لتلك الزيارة ، التي اعتبرها المسلمون في الشرق والغرب، أعظم ما يقرب العبد من نبيه وربه، فهي سبيل يرفعه إلى أعلى الدرجات[35].

ألا أيها الركب المخبون بالضحى عسى لك من أرض الحجاز ظعون أعيدوا أحاديث العذيب
وأهله قلبي بأحاديث العذب فتون
أمن طيبة يا قوم ثوار ركبكم فعن طيبها هذا العبير يبين
محط ركاب الوحي منتجع الهوى مساحب ذيل الرشد حيث يكون
مواطن خير الخلق آثار نعله ومثواه حيا وهو ثم دفين
هو المصطفى المختار من آل هاشم أولي الشرف الوضاح منه جبين

و للأمير أبي حمو موسى الثاني أيضا إطلالات رائقة في هذا الباب[36] :

قفا خبراني عن رسوم نواهج و عن معلمات طيبات الأرائج
و عن أرض نجد و العذيب و بارق ولا تخبراني عن ذوات الدمالج
و جوبا الفيافي والمهامه واستعن على قطع أسباب النوى باللواعج

وعوجا بأرض الطلح من أرض رامه وزفا الهوادي عند رملة لاعج
وإن جئت نجدا فانتشق من ترابها كعرف عبير أو كطيب النوافج
وإن أبصرت عيناك أرض تهامة فبشراك قد وافيت أسن المناهج

وتترسخ الصلة و العلاقة بين أحزان و آلام و أشواق الشاعر و بين معاهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) كتهامه و نجد و العفيف و رامه و الأبطح و الرملة ، فيحملها الشاعر عواطفه و شكواه ، وقلة حيلته وعدم مقدرته على تخطي الموانع للوصول إلى تلك المرابع ، فكان الاستئناس بذكرها و تذكارها ، و بعد ذلك ينتقل الأمير إلى محطات أخرى زينت المديح النبوي و ميزته ، كالدعاء للمعاهد النبوية بالسقيا ، و ذكر الشيب و ضياع العمر في اللهو و الانغماس في الملذات ، وهذا كله قبل أن يتحول الشاعر بسلاسه إلى مدح الرسول الكريم ، وذكر خصاله وأخلاقه وتعداد معجزاته وأثر دعوته على الإنسانية جمعاء.

وقد اعتبر الدارسون لهذا الفن أن كل ما يقدمه الشاعر في هذا المقام من مواعظ وحكم في بداية قصيده مستحسن لدى المسلم ومنسجم مع الطبيعة الإنسانية[37] وهذا لأنها موضوعات يمكن اعتبارها جسورا ملائمة تنقل وتحمل الشاعر و المتلقي إلى الموضوع الأساس وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

و في مديح محمد (ص) يتحول الشاعر من الحديث عن التجربة الذاتية و المعاناة الوجدانية ، إلى الآخر/ الممدوح ، وهي مرحلة غيرية في مقابل المرحلة الذاتية.

وهذا المديح ارتبط بشخصية محمد الإنسان و النبي ، وأخذ عبر التاريخ سمات عدة ، ففي العهد الأول للإسلام ظلت المدائح محافظة على تقاليد القصيدة العربية ، وامتزجت بالمؤثرات الدينية المستجدة ، وقد سعى مداح النبي آنذاك إلى تقديم مدائح نبوية منسجمة مع المفاهيم و التصورات الجديدة للحياة وللفن ، فنجد الشاعر" ... يتجاوز الملامح التقليدية التي رصدت في صورة البطولة الجاهلية على ما قد يشوبها من طيش أو حماقة أو عنف لتحول على يديه إلى صورة مهذبة ينبثق منها الحس الإسلامي الجديد ... فإذا بملامح البطولة تتراءى مجسدة في مكانة رسول الله عليه السلام كهاد للأمة وبشيرا بالحق " [38]

فقد صبغت ولونت الكثير من القيم التقليدية بالطابع الديني الجديد عند مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وخاصة أن التوجه الجديد قد أقر الكثير من تلك القيم وهذبها وأعطاها معان مستحدثة ، ولم يعد المديح النبوي متميزا في معانيه و مضامينه إلا بعد اكتمال مفهوم النبوة في أذهان الناس و الشعراء ، وهنا لا يمكن بحال من الأحوال أن نلوم الشعراء القدامى على ما علق في مدائح النبي الأولى من آثار الجاهلية وهذا لأنه لم يسبق لهم أن مدحوا نبيا .

و وقوف الشاعر هنا عند صاحب الذكرى ، ذكرى المولد النبوي ، هو وقوف عند هذه الشخصية للتعبير عن العواطف المتأججة تجاهها من جهة ، واستعراض لأفضالها على الأمة وذكر لأخ□اقها وئعتδاف بعظمتها وبفردها وتΛيزها عن سا□ر المخلوقات من جهة أخرى.

ومن ثم قان الحديث عن الحقيقة المحمدية والنور المحمدو وسيلة بلوً فن خ□الها الشاعر الزيانق عشقه لÕلك الشخصية IIIلبه العميق لها ، وقد كان لمتصوفة تودجد في هذا الفن النبوي من خلЧال

نظريتهم عن الحقيقة الفحمدية التي روجوا لها وكشفوا في الكثير لن أقوالهم و أشعارهم أن اللÉ خمق الدنيا و أخذجها من العدم إلى الوجودPن ءجل هذا النبي ، " و الحقيقة اللةمدية عنح الصوفية هي الت أمر الملائكة أن يسجoوا لها لأنها هي الÌي كانت تلألأ في جبهة آدم[39]..." ، وهي العماد الذي قامت عليه قبة الوجود عند اب عربي فهي " ... منتهى غاTات الكمأل الإنساني ، فهي ئلصورة الكاللة!للإنسان الكامل الذي يجمع في نفسه حقائق àلوجود ... هي المشكاة التي يسÕقي منها جميع الألبياء J ئلأولياء العلم اfباطني"[40]

وقد ظهرت هÕه النظرية في المدائح إلنبوية ، في مرحلة الصراع مع ألصليبيÌن الذين باUغوا في مدح المسيإ عليه ÀلسÌلام مما دفع شعراء المسلمين إلى مجاراتهم فق التركÌز على الظيبيات و المعجزات ، مشBلون في أشعارهـــ عالما علويا يبوقون إليه ، ويحتل ÀÌيه الرسول الكريم مكانا فذيدا بين الخالق و مخلوقاته، هذا إضافة إلى تأثÌرات الفرق الديلية وتوجهاتها ، وكذا الثقافات الأجنبية الوافدة ، مما حول النبي إلى أعلى المراتب ، وهنا منتهى المدح .

ومنه ما جاء عند أحد أقطاب الصوفية ، وهو محمد البفري J وهو مثال ورثه زكي مبارك في كتàبه ، ويشير إلى أنه من قبيل الÌلو في مدح الرزول (صلى Ч‌ه رليه وسلم) ، لأنه وصف أضفى على النبي الإسلام ثوب شخصية الفسيح .[41]

قبضة النور من قديم أرتنا في جميع الشؤون قبضا وبسطا
وهي أصل لكل أصل تبدى بسطت فضله على الكون بسطا
كل شيء معناه و ألكل منه وعليه مبناه ما اختل شرطا
واجد الشخص وهو مختلف الجن س يقينا من أنكر الحال أخطا

ولكنه توجه لم شكل ظاهرة بارزة في شعر المديح النبوي وفي شعر الأمير أبъ حمو الÌفاني فوسمت بعض قصائده بهذا الفÌم الصوفي ، وجاصة أن النبويات عنده ارتبطت بذكرى مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكانت مركزة على معايشçة لاحتفال ي جو ن àلزهد و الورع ومراجعة النفس بتذكيرها بأيرة محمد (صلى الله عيЧ وسلم) و التغني بخصاله عيدا رن متàهات المتصوفة Шالفلاسفة .ومن ÕÌك ما قال الأمير في إحدو قصائده[42]

نبي كريم جاء بالرشد و الهدى إلى كل قلب في الضلالة مارج
وأشرقت الأنوار من نور أحمد فمنه استفاد الكون كل المباهج
فبدر الدجى والأنجم الزهر كلها وشمس الضحى من نوره المتبالج
وما الرسل إلا تحت ظل لوائه وكلهم عن جاهه غير خارج

وقد أبرز مداح النبي محبتهم له وتعلقهم به ، وتشوقهم لزيارة قبره في أغلب قصائدهم ، وإن أحاسيسهم الدينية الأصيلة كانت نابعة من الشعور العميق بفعاليات كمالات الفضائل المحمدية ، فظهرت على شكل تنويعات على صوت النفس المحبة للرسول الكريم ، وما كان يزيد نار الشوق استعارا هو البعد المكاني في أقصى المغرب الإسلامي حيث تواجد الأمير الشاعر.[43]

ألا يا رسول الله دعوة شيق يؤمل أمالا لديك فساحا
مقيم بغرب كاد من فرط حبه يطير اشتياقا لو أعير جناحا
ومالي سوى حبي إليك وسيلة أمد بها نحو الشفاعة راحا

فلو توفر للأمير المحب جناحان لطار إلى المرابع الحجازية للتملي برؤية الروضة الشريفة و الفوز بشفاعة صاحبها ، فالعجز عن الرحيل إلى ذلك الفضاء الإيماني جعل الروح تنفصل عن جسد الشاعر ، وترحل مع الراحلين تاركة الجسم في ألم وسقم.

قلبي بهواه أسير هواه فيا شوقاه إلى العلم[44]
سرت الإبل لما ارتحلوا قلبي حملوا في ركبهم
حملوا خلدي أفنوا جلدي تركوا جسدي رهن السقم

إن الوضع النفسي هنا ، تصنعه وتشكله رحلة الحجاج وتحرك الراحلين وتوديعهم ، فهو موقف يهيج الأشجان وتدمع له العيون.

مزجت دمعي دما من بعد رحلتهم فانظر ترى عجبا للدمع مختضبا[45]
لا تذكروا حال قيس في محبته إن الهوى لم يزل للحر منتسبا

وهكذا ، في رحلة ارتقاء عبر سلم تصاعدي عاطفي يصور الأمير حرقة الحب والشوق إلى لحظة الخلاص عن طريق وصل أو إجابة عن سؤال ، أو الحصول على شفاعة .

مشوق تزيا بالغرام وشاحا متى ما جرى ذكر الأحبة صاحا[46]
تعذبه أشجانه وهو صابر ويبدي اشتياقا زفرة ونوحا
لكل محب في التأوه راحة إذ أنّ من فرط الحب وناحا
فكم زفرة في القلب أحرقت الحشا كنار تلاقي الهبوب رياحا
أبحتم صدودي في الغرام ولم تروا وصالي في شرع الغرام مباحا
أجود بنفسي في رضاكم صبابة فهلا منتقم بالوصال سماحا

إلى أن يصل إلى قوله في القصيد نفسه

ألا ليت شعري هل أزور بطيبة ربوعا بها حل الهدى وبطاحا[47]
أسكن أشواقي بقرب لقائهم وأنشد قلبا بالأبيطح طاحا
فيا حاديا يحدو الركاب لطيبة يجوب بها بحر الفلاة طلاحا
إذا جئت نجدا أو نشقت نسيمها وشمت عرارا ربوة وبطاحا
فصرح بذكري في الخيام وأهلها وناشدهم شوقي هناك صراحا
وبلغ إلى خير الأنام تحيتي كما نم زهر في الرياض وفاحا
نبي له فضل على كل مرسل أتت ألسن الذكرى بذاك فصاحا

فتصريح الشاعر في قصائده بحب النبي وطلب الشفاعة يعد سلوكا سليما يسير بالنفس إلى التوازن و التغلب على الذنب واسترجاع الصلة مع المحبوب وتمتينها بتجديد العهد ، فالنفس تحن إلى من تحب و تشتاق إليه ، و الشوق كما يرى لسان الدين بن الخطيب[48] " ... حركة النفس إلى تتميم ابتهاجها بتصور حضرة محبوبها ، وهو من لوازم المحبة وذاتياتها"

وإن الإعجاب بكمالات النبوة التي تعد قبسا نورانيا في المقام الأعلى ، تسبب في تلك المبالغات التي نصادفها في مدائح الرسول(صلى الله عليه وسلم) والمعددين لفضائله التي فاقت بقية المخلوقات ، وهي مبالغات لها مسوغاتها الشرعية والوجدانية ، فالنص القرآني واضح فيما يتعلق بعظمة الخلق النبوي " وإنك لعلى خلق عظيم "[49] كما أن الجانب الوجداني عند المسلم – حسب رأى محمد بنعمارة – تتكفل بتهذيبه محبة الله ورسوله ، وكذا باقي الرسل و الأنبياء ، مما يجعل هذا الوجدان رقيقا قادرا على تمثل النموذج البشري الكامل في النبي محمد ، هذا النبي الذي من عليه ربه بمديح قرآني وثني عليه محبوه من شعراء النبويات.[50]

وكان لمعجزات النبوة مكانها في مدائح الأمير ، فاستعان بمجموعة منها انسجمت مع موضوعات نصوصه ، وأبرزها ما ارتبط بولادته (صلى الله عليه وسلم) والتي عبرت عن الانبعاث و التجدد على مستوى العقيدة ، والنفس الإنسانية ، و الحياة الاجتماعية بصفة عامة ، ونورد من ذلك هذا التخميس:[51]

يا ليلة الإثنين نورك قد سما وانجابت الظلماء عن أفق السما
وانهد إيوان كسرى عندما خلق النبي الهاشمي معظما
في ليلة غرا بشهر ربيع
بهدى رسول الله أمته اهتدت بظهوره، الأصنام خرت وارتدت
وبنوره نيران فارس أخمدت ودلائل بانت وآيات بدت
وشفاعة جاءت لكل مطيع

وإن ما عرف عن شعراء المديح النبوي من ميل إلى تعداد المعجزات و الوقوف عندها مطولا يعود إلى كثرة ورودها في مصادر السيرة النبوية ، وإلى تأثير الصوفية آنذاك ، والذين كانوا ميالين إلى الخوارق والكرامات والترويج لها وتوظيف الخيال في ما نسج حولها لإرضاء أذواق الناس وشد الانتباه وتعظيم الشخصية الإسلامية .

والحديث عن المعجزات بصفة خاصة في مدائح الرسول الكريم وبدرجة أخص في حفل بهيج يشرف عليه الأمير بنفسه كان له أهداف ذاتية وجماعية ، فالمخيلة الشعبية تستهوي هذه الأشياء الخارقة ، وترغب في سماعها كثيرا لأنها تقدم الرسول الكريم ، بطلا إسلاميا ومنقذا الأمة في عهد اشتدت فيه المحن والأزمات ، فحلم الجماعة أن يرفع الكرب بعمل خارق معجز يعيد للأمة قوتها وعافيتها ، فالحديث عن المعجزة يشبع العواطف الدينية عند المستمع و الشاعر ، ويحقق بلوغ الغاية في مدح النبي .

ولم يكن شعر الأمير بمنأى عن كل هذا ، بل أسهم فيه إسهاما واضحا – أوردنا مثالا على ذلك– كما نجده يقف عند محطة أخرى في المديح ألا وهي محطة التوسل وطلب الشفاعة التي تتحول إلى تقليد ملزم في المدائح النبوية ، ففيها يظهر الشاعر قوة العاطفة الدينية ، وقمة النقاء الروحي ، وضعفه أمام الخالق ، وقلة حيلته ، فيستغيث بالجانب النبوي ، وهذا النوع من الاستغاثات المدوية يظهر لما تضيق على الناس السبل وتهتز القيم وتتدهور العقائد ، وتغلق الأبواب ، ولا يبقى سوى التوجه إلى الله وإلى نبيه شفيع الأمة:[52]

إلهي هب لي منك عفوا ورحمة فما زلت يا مولاي تبلغني القصدا
وعبدك موسى لم يزل فيك راجيا ومن شيم المولى بأن يرحم العبدا
توسلت بالمختار من آل هاشم أجرني من النار التي أضرمت وقدا
هو الرحمة الهادي الشفيع لنا غدا هو المصطفى المختار يلهمنا الرشدا
هو الذخر للهول الشديد إذا أتى ومن ذا سواه للمخاف إذا اشتدا

وما ميز المدائح النبوية عند أبي حمو موسى الثاني ، وغيره من شعراء عصره ، هو ارتباطها بمتعاليات مقدسة كان لها وقع حسن لدى المتلقي ، فقد نظمت بشكل كشف عن عواطف دينية صادقة ، ونفحات إيمانية عميقة ، أثارت نفس الأحاسيس لدى المستمعين ، وخاصة أثناء إنشادها في حفل السلطان ، كما أنها كثيرا ما ربطت بين مدحها للنبي وبين واقع المسلمين وهموم عصرهم ، فتفاعلوا معها ، وكثيرا ما قابل فيها الشعراء بين سعي الأمراء إلى الحفاظ على قيم الأمة ومنجزاتها ، وبين ما قدمه الأوائل وعلى رأسهم محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وللأمير الزياني ، مساهمات أخرى في الرثاء والفخر ، فمن مرتباته قصيد كشف فيه فجيعته في والده أبي يعقوب (ت763) ، الذي أحسن تربيته وتعليمه ، وكان كثير الملازمة له ، وخاصة في غربته بعد سقوط تلمسان .

أفجعتني يا زمان اليوم في خلدي ما أسرع الموت في الأحباب حين وفى[53]
صارت مساكنهم تحت التراب وقد تمزق الدود ما كان مؤتلفا
الماء والنار مجموعان في كبدي فأعجب لضدين في قلب قد ائتلفا
نار تشب وأكباد تذوب بها ويح المعذب بالجنسين يالهفا

بكى الأمير والده ، وشكا ألمه وفجيعته فيه ، وبكاؤه ليس ببعيد عن بكائه الوطن والملك الضائع ، فضياع الأب ضياع تلمسان عاصمة الملك ومرتع الصبا.

يا فقد يوسف ما أبقيت لي جلدا يا فقد يوسف إن الصبر عنك عفا[54]
يا مثل يوسف مفقود لفاقده ولا كموسى أخو فقد إذا وصفا
أصيب بالمعضل الأدمى بوالده كفقد يوسف لكن حتف ذا جحفا
يا قبر يوسف لا تهدوك هامية من الغمام ولا زال الثرى رعفا

فلا بديل للأمير إلا هذه الأبيات تشفي حرقته على والده ، وتخفف من وطأة الألم والحزن.

فهذا هو الأمير أبي حمو موسى الثاني الزياني الأمازيغي ، لم يكن ذلك الرجل السياسي والعسكري المحنك الحصيف فحسب بل كان رجل فكر وإبداع في الوقت نفسه ، فرحلته مع السياسة لم تمنعه من أن يرحل مرات عديدة مع العلم والفكر والفن ويخصص بعض وقته لذلك ، وإن ما خلفه من أثار تبين عن ثقافة عربية أصيلة ، وذوق أدبي رفيع ، جعله ينافس الكثير من الأدباء والشعراء ، وخاصة في ميدان المديح النبوي ليلة الاحتفال بذكرى مولده(ص).

وهكذا تنتهي رحلتي في هذه الأوراق مع أمير الأمازيغ الذي أبدع على مستوى السياسي في أراضي بلاد المغرب، كما أبدع في الحديث عن هذه الرحلة في كتابه " واسطة السلوك في سياسة الملوك " ، وأهدى للقارئ العربي عصارة خبرته وتجاربه في الحياة بلغة عربية تتخللها تهويمات خيالية رائقة وممتعة ، كما أبدع هذا الرجل على المستوى الشعري حينما صاغ رحلته هذه في قوالب فنية عدة فكان الفخر وكانت الحماسة ، حينما تستوقفه بطولاته وفتوحاته ، وكان الرثاء حينها يستوقفه القلب عند فقد الأحبة وكان مديح الرسول الكريم حينما يتذكر الأحبة في البقاع المقدسة ، وحينما تهيج كوامنه وهو يودع إلى مكة قوافل الحجيج الراحلة من المغرب إلى بلاد الحجاز ، محملا إياهم رسائل الشوق إلى شفيع الأمة محمد خاتم النبيين .

الإحـالات

1- الأصالة : ص: 07
2- نفسه : ص: 14
3- نفسه : ص: 13
4- حاجيات : ص: 73/72
5- نفسه : ص: 86
6- تاريخ الجزائر العام : 155/154
7- نفسه : ص: 155
8- حاجيات : 322/321
9- عبد الرحمن الجيلالي : /147
10-نفسه : ص: 156
11-حاجيات : ص: 187
12- نفسه : ص: 270
13- نفسه : ص: 271
14- نفسه : ص: 274
15- نفسه : ص: 279
16- نفسه : ص: 283
17- تاريخ ملوك تلمسان : ص: 161/160
18- حاجيات : ص: 211

19– نفسه ص: 212/211
20– بغية الوارد : ص: 36
21– نفسه :ص: 157
22– نفسه : ص: 158/157
23– حاجيات :ص: 215
24– نفسه : ص: 315
25– نفسه : ص: 299
26– نفسه : ص: 300
27– نفسه : ص: 217
28– أزهار الرياض : /ج2/ ص: 376/375
29– مجلة كلية الآداب: ص: 259
30– حمادي: ص: 224
31– حاجيات : ص: 345
32– خزانة الأدب : ص: 36
33– بغية الرواد:ج2 ص127/125
34– حاجيات : ص: 373/372
35– بغية الرواد : ج2 ص: 216
36– حاجيات : ص: 375
37– النيهاني : ص: 11
38– أبعاد المؤثر الإعلامي ، ص:14
39– شعر عمر ابن القارص/ص: 205
40– المعجم الصوفي : ص: 348
41– زكي مبارك : ص: 232
42– حاجيات : ص: 377/376
43– بغية الرواد : 99
44– نفسه :ص: 43
45– نفسه :ص: 188
46– نفسه : ص: 99/97
47– نفسه : ص: 99
48– روضة التعريف بالحب :ص: 648
49– القلم /آية 64
50– بن عمارة : ص: 114
51– بغية الرواد : ص: 127/126
52– نفسه : ص: 226/225
53– نفسه : ص: 219
54– نفسه : ص: 219

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

1- ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأدب ، شرح ، شعينو. دار الهلال ، بيروت ، ط ح ، 1991

2- ابـــن خلـــدون يحـــي : بغيـــة الـــرواد فـــي ذكـــر الملـــوك مـــن بنـــي عبـــد الـــواد ، ج1 ، دار الجيل بيروت ، ط5 ، 1981

3- ننعمارة محمد : الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر ، شركة النشر والتوزيع ، الدار البيضاء المغرب ط2001

4- التطاوي عبد الله : أبعاد المؤثر الإسلامي في القصيدة العربية ، دار الثقافة ، مصر ، د ط ، د ت.

5- حاجيات عبد الحميد : أبو حمو موسى الزياني ، حياته وأثره ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 1982

6- زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، د ط ، د ت

7- سعاد الحكيم : المعجم الصوفي ، د ندرة للطباعة والنشر ، بيروت ، د ط ، د ت

8- عاطف جودت نصر : شعر عمر بن القارض ، دار الأندلس ، ط1 ، 1982

9- عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام .

10- عبد الله حمادي : دراسات في الأدب المغربي القديم ، دار البعث للطباعة ، الجزائر ، ط1 ، 1986.

11- لسان الدين بن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، ر ت ح ، محمد الكتاني ، دار الثقافة ، المغرب ، ط1 1980.

12- محمد بن عبد الله التنسي : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، ت ح ، محمود بوعياد ، المواسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، د.ط ، 1985

13- النبهاني : المجموعة النهائية في المراشح النبوية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1996

الدوريات

1- مجلة الأصالة : عدد 26 ، سنة 04 جويلية ، أوت 1975 مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر.

2- مجلة كلية الآداب/تطوان : السنة 2 ، عدد 02 مطبعة النجاح ، الدار البيضاء ، المغرب 1987.